٣ — من لغو الصيف

سوق الرقيق

للأستاذ سيد قطب

هذا الحشد من العرايا فوق « البلاج » إنه يذكرني بسوق الرقيق . لم أر هذه السوق ، ولكنني قرأت عنها ، ورسمت لها في نفسي صورة . . إنها لو تجسمت ما كانت إلا هذا الحشد من العرايا فوق « البلاج » !

إنني أسمع هنا صلصلة القيود ووسوسة الأغلال وسوط النخاس ! لا ألمح هنا طلاقة الروح ، ولا حتى فراهة الجسد ! لا ألمح الحرية التي ترفرف بلا سدود ولا قيود !

يخيل إليّ في أحيان كثيرة أن هناك « نخّاساً » هو الذي يعرض هذه الأجساد للشراء . أكاد ألمحه مختبئاً خلف هذه الأجساد الرخيصة التي تتحرك وفيها ثقلة القيد ، وتترنح فتوسوس الأغلال !

ويحي !

مالي لا ألمح الفرح في هذه الوجوه الضاحكة ، ولا أحس السعادة في هذه الملامح المرحة ؟

ليس هنا فرح ولا سعادة ، فالفرح نورانية وإشراق ، والسعادة شفافية واطمئنان ... هنا عربدة تخفي وراءها ضجراً ، ومرحٌ يستر في الجوانح الضيق !

هؤلاء قوم ضاق عالمهم « الباطن » ، فانطلقوا يذرعون الأرض بحثاً عن عالم « الظاهر » ، ومن فقد نفسه فيهيات يجد في « الخارج » شيئاً يطمئن إليه ، ويستشعر به السعادة والهدوء! مساكين ! ! !

* * *

ولكن أهذه محنة رواد « البلاج » وحدهم في هذه الأيام ؟

كلا ! إنما هي محنة هذه الإنسانية التي غفلت عن نفسها لتسمع صوت الآلات ، محنة هذه الحضارة المادية الواردة من أوربا ، والتي فتنت الناس عن أنفسهم بما أبدعته من وهج وبريق وضجيج !

كم أمقت هذه الحضارة الأوربية وأحتقرها ، وأرثي للانسانية التي خدعت بها ، فأوردتها المهلكة ... بريق وضجيج ، ومتاع حسي غليظ . وفي هذه الضجة تختنق الروح ، ويخفت الضمير ، وتنطلق الغرائز والحواس ، سكرانة معربدة تهيجها الأنوار الحمراء ، كالديكة والثيران في بلاد الأسبان !

حينما كان للانسانية « باطن » تستجليه ، وتستشرف فيه النور المشرق الشفيف ، وتستروح فيه الأشواق الخالدة ، والآفاق البعيدة ... كانت هادئة مطمئنة مستقرة ، لأنها في الأعماق هناك غنية بما تجد ، مستغرقة في ذلك العالم الفسيح ...

فلما طفت على السطح بفضل هذه الحضارة المادية البائسة ، ظلت تقفز وتقفز ، فلا تستقر أبداً وظلت في قلق دائم ، وهياج مستمر . تبحث في كل يوم عن جديد ، وتزهد بعد يوم في هذا الجديد .

إنها اللعنة التي يعدها « معجزة » بعض المفتونين بالبريق .

ما قيمة آلات واختراعات وكشوف لا تحقق للنفس سعادتها ، ولا تهب للضمير اطمئنانه ، ولا تستمتع فيها الإنسانية حتى بالراحة من الضجر والقلق والعربدة والضيق ؟

* * *

ولقيني بائع الكتب في أحد مقاهي المدينة ... فشكا إلي كساد سوق الكتب في هذه الأيام ! وقلت أعزيه عن خسارته أو أسليه :

— أو تحسب الناس هنا جاءوا ليقرأوا كتبا ؟ إنهم يستروحون ويستجمون ويستعيدون نشاطهم المفقود !

فما كان أسرعه بالجواب .. إنه فيلسوف :

— وهل هذه الدهرات الحمراء الصاخبة التي يغرقون فيها مما يريح الأعصاب يا سيدي الأستاذ ؟!

وحرت كيف أجيبه .. وجمجمت بالكلمات المخنوقة ، في الوقت الذي كان هو يتابع حديثه بعد هذا الاستفهام :

— الكتب يا سيدي الأستاذ تباع الآن في الحي الحسيني . هنالك تجد الإقبال على جميع أنواع الكتب القيمة حتى في هذا الصيف الشديد ...

إذن ما يزال في هذه الأمة خير . هذا الخير هنالك في الحي الحسيني حيث يعيش الفقراء من الناس ، وحيث يعيش

الأزهريون .. هنالك حيث يخفت قليلا صوت الحضارة المادية الجوفاء ، وحيث يحيا جزء من الماضى .

ولكن إلى كم يا ترى يعيش هذا الخير قبل أن يخنق ؟ ليخيل إلى أن الأزهر فى هذه السنوات « يتجدد » على طريقة « الغراب » . فهلا اتقى الله فيه أولئك « المجددون » فحفظوا له قدمه البعيد فى عهد الاجتهاد ، وصانوه عن ذلك « التجديد » أو ذلك « التقليد » ؟!

الكتب ..

وهل يصبر هذا الجيل الضجر القلق المعربد الصاخب ... على الكتاب ؟ ولماذا يقرأ الكتاب الجادّ ، ولديه تلك المجلات الرخيصة والأفلام الداعرة تملق غرائزه ، وتنادى أحقر ما فيه ؛ وتنشر له صور المرايا على البلاج ، وتحدثه بالدعارة عن القلب الإنسانى وما فيه ؟

أقول القلب الإنسانى ! وهل تعرف هذه الصحف والأفلام القذرة ومحرروها وممثلوها الرقعاء ، شيئاً عن القلب الإنسانى ؟ ولكنهم يسودون صفحات فى كل أسبوع وينشرون أفلاماً فى كل شهر عن هذا القلب الذى يزعمون !

آه .. لو سوط الجلاد !

هنالك فى « نجد » يجلدون الشعراء الذين يقولون الغزل . وهنا فى مصر يصفقون لمن يدلون الفتيات والفتيان على طرق الدعارة ويدربونهم على المجون الرقيع ...

شىء من التسامح هناك . وشىء من الحزم هنا ... يرحمك الله يا محمد بن عبد الوهاب ، ورعاك الله يا عبد العزيز آل سعود ! يوم وليلة فقط من هذا فى مصر ، ليجلد أولئك الرقعاء فى محطة الإذاعة وفى « ستوديهات السينما » وفى جميع المجلات المصرية ، الإعداد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، يشرف عليه بعض الشرفاء ذوى الأعراض وهم قليلون ! !

ولكنهم ساكنين .

لقمة العيش وشهوة الجسد ... هذا كل عالمهم فى الوجود !

هم وقراؤهم ومستمعوهم ومشاهدوهم من ذلك الطراز ... ليس هنالك أفق مجهول ، ولا هدف مكنون .

ليس هنالك عالم فى الضمير يعيشون فيه بعض الوقت ، ثم يخرجون منه ليروا هذا العالم الظاهر بعين المستطلع ، وحس المتذوق ، وشعور الغنى بالرصيد المذخور !

نهم بالمتاع وسعار ، المتاع الحسى الغليظ ، المتاع المتاح فى هذا العالم المادى ... لو كان لهم روح تستشرف آفاقا وأنوارا أخرى لا قتصدوا فى هذا المتاع الحسى الغليظ !

ولولا جريمتهم فى نشر الدعارة بين الشعب كله ، لاستحقوا الرثاء ولكنهم ينشرون فى صحافتهم وأفلامهم وأغانيهم ما يعاقب بوليس الآداب على بعضه فى المواخير ، ويسمون بعد ذلك كله صحفيين أو مطربين ناجحين !

* * *

ويحى ! لماذا استطردت هذا الاستطراد ؟ إنما أتحدث عن « سوق الرقيق » !

واللطمة ؟

هذا هو الإسم الذى اختاره بعضهم بحق للقسم من « الكورنيش » بين « بلاج سيدى بشر رقم ١ » و « بلاج سيدى بشر رقم ٢ »

فحينما ينقضى النهار ، يخرج رواد « البلاج » منه ، ويصطف بعضهم فى المساء على سور « الكورنيش » بينما يجول بعضهم الآخر ذهابا وإيابا .

يستعرض هؤلاء أولئك ، ويستعرض أولئك هؤلاء !

هؤلاء هن بوارى سوق الرقيق ... هؤلاء هن ممرومات تجول فيهن الأنظار ، وتحملق فيهن العيون ، وتتدسس الخطرات المريضة إلى أجسادهن الرخيصة فى رقاعة وفضول .

هذه هى الضحكات الرخوة الماثعة ؛ وهذه هى الحركات الرقيعة الماجنة ... ضحكات الجوارى ، لا تدل على فرح عميق ولا حتى على مرح أصيل . إنما هى ضحكات الرقيق لاجتلاب « الزبون » ! ضحكات يحاسب عليها النخاس أو يثيب !

من ذا ينقذكن أيتها الجوارى المسكينات من سوق الرقيق ؟

من ذا يردكن إلى البيوت الكريمة المصونة ، ويرد إليكن كرامتكن المهدرة ، التى سلبت منكن باسم « الموضة » فى هذه الأيام السود ؟

كان الرجال يتشهون نظرة من بعيد ، ويتشوقون إلى زواج كريم نظيف . فصرتن اليوم سلعة ممروضة على الأنظار ، سلعة فى سوق الرقيق !